9 فقه العمل الجماعي في صياغته الحديثة

نكبتان كبيرتان حدثتا في تاريخ الإسلام، أتعبتا عموم المسلمين، ولمدى أجيال، بخلاف نكبات صغيرة محدودة الأثر كثيرة.

النكبة الأولى: أحدثها هولاكو، وبلغت ذروتها باحتلاله بغداد عاصمة الإسلام.

والناظر لهذه النكبة يجد أنها ما كانت بدعة عما يصيب الأمم في فترات ضعفها، وتوقعها الكثير من العلماء، وحذروا الأمة وأولى الأمر من وقوعها قبل سنين طويلة من السنة التي وقعت فيها، وهي السنة ٦٥٦هـ، لما رأوه من تردي أحوال العامة في عقيدتها وأخلاقها، وبعد جهاز الدولة عن الجد والتجرد، وضعف هيمنة الخلفاء، وعزوف جمهور العلماء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتهائهم بالجدل والمناظرات الجافة الموغرة للصدور [١].

وقد حاول بعض متأخري الخلفاء إصلاح الأحوال بنظام الفتوة الذي حرف به سيرة كثير من العامة إلى سيرة شبه عسكرية، إلا أن إصلاحه كان مخروقا، لأنه لم يعتمد العقيدة أساسا تربويا لنظامه، فتحول النظام إلى نوع من اللهوى.

وهذا هو الذي يفسر لنا ذلك الذهول الذي أصاب معظم الأمة بعد تلك النكبة، وحيرتهم، ولولا أن أتاح الله للأمة الإمام ابن تيمية، بما أعاده

---

(١) أشار الغزالي في مواضع من الإحياء إلى مثل هذه الظواهر، وكتب فيها الندوي خلال كتابه **(رجال الفكر والدعوة في الإسلام)** في طبعته الثانية، ولأكرم العمري بحث في أخلاق العامة آنذاك نشره في مجلة كلية الدراسات الإسلامية ببغداد.

Obeikandi.com

من الثقة، وأوضحه من فقه العمل، لكان الذهول أطول، إلا أن بعض أصحاب القلوب الحية من العلماء كانوا أسرع إلى فهم كلام ابن تيمية، فعاونوه، أو نسجوا على منواله، ورتقوا بعض الخرق الكبير.

ومع ذلك، فيجب ألا نبالغ في تصوير أثر الاستدراك الذي قام به ابن تيمية وصحبه، فإنه كان محدود الأثر، واستمرت أحوال العامة في التردي، واستمرت تجزئة العالم الإسلام إلى دويلات صغيرة متنازعة ضعيفة.

وبعد قرون من نكبة بغداد، استطاعت الدولة العثمانية في عصرها الأوسط، وبمجيء بعض السلاطين الأقوياء الذين تمكنوا من توسيع رقعتها، أن ترث هيبة العباسيين، وتعيد إلى الأذهان معنى الخلافة الأقرب إلى سمتها الأول الذي عهد المسلمون في أواسط الخلافة العباسية، إن لم نقل: سمتها الأقدم من ذلك، واستمرت الدولة العثمانية حتى نهاية حكم السلطان عبد الحميد / جديرة بأن يوصف حكمها بأنه حكم إسلامي، على عيوب كثيرة، ونقص في تطبيق الأحكام الشرعية في آخر عهدها، وعلى ظلم من بعض الولاة الذين أساء السلاطين اختيارهم أحيانًا. ولا يقول بخلاف قولنا هذا إلا متأثر بتزييف حقائق التاريخ الحديث، ذلك التزييف الذي قامت به المجامع الاستشراقية والدوائر التبشيرية، واستخدمت فيه عملاءها من الكتاب أو ضحاياها من الذين تقمصهم نوع من التطرف القومي العربي.

وأما النكبة الثانية: فاحتلال الجيوش الإنكليزية والفرنسية لبلاد الإسلام في الحرب العالمية الأولى، وقضاؤهم على آخر صورة يمكن أن تسمى بأنها إسلامية كما قلنا ممثلة في الحكم العثماني، أو بعبارة أدق: قضاؤهم على أي احتمال قريب لتقويم انحراف الحكم العثماني عن الإسلام، حين حرف حزب الاتحاد والترقي بانقلابه على عبد الحميد،

قوانين شرعية كثيرة، وحرف منهاج التربية، وأشاع الطورانيـة، أي القوميـة التركية، ورضى السذج من أركان ذلك الحزب تـدخل الأيـادي اليهوديـة والماسونية في الحزب وسياسة الدولة.

وكما جعـل هولاكـو احـتلال بغـداد هـدفا معنويـا مهـما أراد بـه كسر معنويات عمـوم الأمـة الإسـلامية، فكـذلك جعـل الحلفـاء، أو الإنكليـز بالتحديد، أو تشرشل نفسه، احـتلال بغـداد والقـدس هـدفا معنويـا، مـع التركيز على احتلال بغداد بالذات لكسر معنويات الأمـة، وإعـادة احـتلال هولاكو لها إلى الأذهان، كما كشفت عن ذلك البرقيـات المتبادلـة بـين قائـد الحملة الإنكليزية لاحـتلال العـراق خـلال الحـرب العالميـة الأولى، وبـين وزارة المستعمرات .

وبرزوح البلاد الإسلامية تحت حكـم الجيـوش الاسـتعمارية، أو تحـت حكم المماليك الذين نصبوهم ووجهوهم من وراء ستارٍ عادت الجاهلية إلى أرض البلاد الإسلامية، وضربت أطنابها، وتمكنـت مـن قيـادة المؤسسـات السياسية، والأجهـزة التربويـة، والبيـوت التجاريـة والماليـة، واسـتطاعت بذلك من دخول القلوب بالترغيب والترهيب.

وبعودة الجاهلية، عادت الحاجة إلى من يجاهدها ويعيد حكم الإسلام.

مبادرة عاكستها الظروف

وحين أذهلت المخلصين بدعة الانحراف الضخمة التي جاء بها حـزب الاتحاد والترقي حاول بعض السـذج مـنهم مناهضـتها فـورا، ففشـلوا، في قصص مشهورة، إلا أن المحاولة الواعية جاءت بعد سنين من بغداد على يد رجل من كبار العسـكريين أيـام عبـد الحميـد، ويعرفـه العراقيـون بالنبـل والتقوى والشجاعة، ذلكم هو (**محمد فاضـل باشـا الداغسـتاني**) / ؛ إذ أنـه

أسس مع بعض خيار من أعيان بغداد من آل الخطيب وغيرهم ما سموه بـ(**الحزب الإسلامي**) سرًّا، ونص منهاجهم على مناهضة حكم الاتحاديين، وإعادة الحكم إلى سمت إسلامي شرعي واضح على نحو ما كان سابقا [(١)].

كانت مبادرتهم هذه سنة ١٩١٣م.

ولذلك أجبرتهم ظروف الحرب العالمية على التريث والالتهاء بصد الخطر العام الذي دهم الأمة، ثم مات البطل الداغستاني فيما نحسبه شهادة بشظايا طلقة مدفع خلال معركة حصار الكوت، تلك المعركة الظافرة الرائعة التي أتت بهزيمة الإنكليز أمام بعض بقايا جيش الأمة الإسلامية، واستسلام أربعة عشر ـ ألف جندي إنكليزي وأخذهم أسرى، وكان الداغستاني / قائد المتطوعين غير النظاميين في تلك المعركة وما سبقها، ودفن جوار قبر الإمام أبي حنيفة ببغداد، ودفنت معه تلك الهمة الكبيرة العالمية النبيلة.

تجدد الذهول

ولكن انتهاء الحرب العالمية، وتسلط الجاهلية، تركا عموم المسلمين في ذهول شديد وحيرة.

كان الوضع الجديد بحاجة إلى رجل يبدأ فيعيد من أفراد المسلمين أمة إسلامية يقودها إلى حكم الإسلام ثانية، بأسلوب يناسب الواقع.

لكن الرياح الجاهلية كانت تصفر صفيرا شديدًا في ديار الإسلام الخالية وما هناك من يصرخ بالمسلمين مستنهضا، فيعلو هتافه على صفيرها.

---

(١) تجد الإشارة إلى خبر هذا الحزب في كتاب (البغداديون أخبارهم ومجالسهم) إبراهيم الدروبي.

obeikandi.com

نعم، كانت هناك أصوات مخلصة كثيرة في بقاع الإسلام، لكنها ما كانت تعرف طريق العمل الصحيح، ولا الصفاء الإسلامي الكامل، وتتوهم الطريق مقالات تكتب أو مؤتمرات تجتمع فتقرر عودة الإسلام على الورق فحسب، ولذلك بدت صيحات على ورق الصحف أو المنابر أو في المؤتمرات كمجموعة نغمات نشاز أمام نغمة الأوج الهدارة لنشيد الإسلام الجديد الذي كان المسلمون بشوق إلى سماعه.

كان الإسلام بحاجة إلى من يعرف طريق العودة الصحيح، ويفقه أصول العمل الجماعي عند السلف، فيدق صدره، ويعلي صوته ليسمعه المسلمون، ويقول: ها أنا. فيلتفون حوله، ويميزون صيحته، ونبرة تكبيره.

إدراك الذات

"ها أنا" هذه عرف إقبال / حاجة الأمة لها.

إنها التعبير عن **"إدراك الذات"** عنده.

وهي في مثل فترة الذهول تلك، التي كانت يعيشها المسلمون، تعني إدراك الطريق الصحيح، الذي يبدأ من تربية الفرد على معاني العقيدة الإسلامية الصافية، ويتطور إلى تجمع له قيادة لها خطة.

وقد صور إقبال إدراك الأمة لذاتها الحقيقية الإسلامية من بعد ذهولها كإدراك الطفل لذاته من بعد عجزه أيام طفولته الأولى.

ولأن هذه الأمة تولد من دعوة رجل واحد فقيه ذي همة، كما قال في ديوانه الذي خصصه لبيان الذات: **"تولد الأمة من قلب جليل..."** [(١)]،

(١) شطر من ديوان الأسرار والرموز/ ١٠٨.

فقد تحددت صفة الخطوة الأولى في طريق انتشال الأمة من الذهول وإرجاعها إلى الإسلام.

إنها الخطوة الأولى، عنوانها: أن يبادر قلب جليل فيدق صدره أمام جماهير المسلمين، ويقول: ها أنا ذا، على صفاء عقائدي، وتجرد سلوكي تلحظونه فتجمعوا حولي.

أو، بأحرف إقبال في تصوير هذا البشير النذير حين يستفيق من الذهول:

أرأيت الطفل يا ذا البصر ... ما له عن نفسه من خبر
ليس تدري أذنه ما النغمة ... لحنه ثورته والضجة
وبعين الكون إنسانا يرى ... كل شيء ما عداه أبصرا
بعد لأي طرف الخيط بدا ... بعد ما حلت يداه العقدا
فتراه عينه مستعلنا ... فيدق الصدر يعني: هاأنا
(أنا) هذي بدء مقصود الحياة ... نغمة اليقظة في عود الحياة[(١)].

هذا هو "المجدد" بالاصطلاح الإسلامي، فالإسلام لا يعرف (أن تكون السلطة بيد الجاهلية ويقف الإسلام منها موقف التابع المتخلف، ولا كان يكفيه أن يكون هنا وهناك رجال متمسكون بالإسلام في حياتهم الفردية المحدودة، وتشيع في الحياة الجماعية الواسعة أخلاط شتى من الجاهلية والإسلام.

ولذلك كان –ولا يزال– الدين الإسلامي في كل عصر في حاجة إلى رجال أقوياء يأتون ويسددون خطى الزمان ويوجهون مسيره إلى الإسلام،

(١) ديوان الأسرار والرموز/ ١٣٣.

obeikandl.com

سواء أكان عملهم في ذلك محيطا شاملا أو كان على بعض نواحي الأمر مقتصرا، وهؤلاء هم الذين يدعون بالمجددين)[١] .

ولأن طريقهم يقتضي البذل، كان من شروطهم أن يكونوا أبطالا من الشجعان، إذ إن (الذين لا يقوون على البذل في سبيل المقصد الأعلى، ولا يشجعون على مقاومة الأخطار والمشكلات، والذين لا يطلبون في هذه الدنيا إلا الراحة والسهولة والرغد، وهم ينسكبون لذلك في كل قالب ويطاوعون لكل ضغط لا تجد لهم فعالا تذكر في التاريخ الإنساني، وإنما تشكيل التاريخ يكون من شأن الأبطال وحدهم، وهم الذين قد غيروا أبدا مجرى الحياة بجهادهم وتضحياتهم، وبدلوا أفكار العالم)[٢] .

ها أنا... يقولها حسن البنا

وكان هذا البطل الشجاع الذي دق صدره وقال: ها أنا ذا، هو الإمام حسن البنا /، ورفع صوته عاليا معلنا بداية التجمع والمسير سنة ١٩٢٨. بعد عشر سنوات كاملات من الذهول الذي أصاب الأمة من جراء نتيجة الحرب العظمى، وسرعان ما تكاتفت معه تلك الطليعة المؤمنة من عمال شركة قناة السويس، فكانت الدعوة الوارثة لجماعات السلف الآمرة بالمعروف.

وكان الأستاذ المودودي يمهد آنذاك ببحوثه القيمة لمثل هذه المسيرة في الهند، ثم بدأ التجميع فعلا سنة ١٩٣٨.

---

(١) موجز تاريخ تجديد الدين للمودودي/ ٢٨.

(٢) نحن والحضارة الغربية للمودودي/ ٢٥١.

وتلقف بعض الميامين هذه الدعوة في بعض البلاد العربية عن الإمام البنا، فكان في كل مكان رائد شجاع تجمعت حوله طليعة وبدءوا المسير المبارك في السودان، وسوريا، وفلسطين والعراق، والأردن ولبنان.

وبذلك رسم هؤلاء القادة بريادة الإمام البنا، مع الطلائع المقدامة الذين سارعوا للعمل معهم الصورة العملية لأصول فقه العمل الجماعي الإسلامي في العصر الحديث، وأتاحوا لبلاغة سيد قطب / أن تنطق فتصف الطريق الدائم لمسيرة الدعوات.

يدعونا أن نتذكر (كيف وقع هذا الأمر أول مرة! لقد وقف رجل واحد يواجه البشرية كلها بمنهج الله ويقول لها –كما أمر-: إنها في جاهلية، وإن الهدى هدى الله.

ثم تحول التاريخ.. تحول حين استقرت هذه الحقيقة الهائلة في قلب ذلك الرجل الواحد. تحول على النحو الذي يعرفه الأصدقاء الأعداء!

هذه الحقيقة التي استقرت في قلب ذلك الرجل الواحد ما تزال قائمة قيام السنين الكونية الكبرى.. وهذه البشرية الضالة قائمة كذلك وقد عادت إلى جاهليتها!

وهذا هو الأمر في اختصار وإجمال...

توجد نقطة البدء، نقطة استقرار هذه الحقيقة في قلب.. في عدة قلوب.. في قلوب العصبة المؤمنة.. ثم تمضي القافلة في الطرق. في الطريق الطويل.. الشائك.. الغريب اليوم على البشرية غربته يوم جاءها الهدى أول مرة –فيما عدا بعض الاستثناءات– ثم تصل القافلة في نهاية الطريق الطويل الشائك كما وصلت القافلة الأولى.

لست أزعم أنها مسألة هينة، ولا أنها معركة قصيرة.. ولكنها مضمونة النتيجة.. كل شيء يؤيدها.. كل شيء حقيقي، وفطري، في طبيعة الكون، وفي طبيعة الإنسان.. ويعارضها ركام كثير، ويقف في ريقها واقع بشري ضخم، ولكنه غثاء!

ضخم نعم.. ولكنه غثاء!) [(١)]

(إن نقطة البدء الآن هي نقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الإسلام.. أن يوجد في بقعة الأرض ناس يدينون دين الحق، فيشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.. ومن ثم يدينون لله وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع، ويطبقون هذا في واقع الحياة.. ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الإعلان العام لتحرير الإنسان) [(٢)] .

(إنه لابد من طليعة تعزم هذه العزمة، وتمضي في الطريق).

(والثلاثة يصبحون عشرة، والعشرة يصبحون مئة، والمئة يصبحون ألفا، والألف يصبحون اثني عشر ألفا) [(٣)] .

فهذا هو أسلوب الطلائع في محاولة البعث الإسلامي لتحقيق المنهج الإسلامي، فالمنهج **(إنما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر، تؤمن به إيمانًا كاملا، وتستقيم عليه -بقدر طاقتها- تجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين، وفي حياتهم كذلك)** [(٤)] .

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة لسيد قطب/ ١٩١.
(٢) في ظلال القرآن ١٠/ ١٩١.
(٣) معالم في الطريق ٩/ ١١٨.
(٤) هذا الدين لسيد قطب/ ٧.

obeikandi.com

ولابد من (البعث الإسلامي مهما تكن المسافة شاسعة بين محاولة البعث، وبين تسلم القيادة، فمحاولة البعث الإسلامي هي الخطوة الأولى التي لا يمكن تخطيها) [١].

وهذه الطلائع، هي الطلائع الموفقة الفائزة التي سيندم من لم يلتحق بها منذ الآن، وسيتوجع كما توجع الصحابي ذو الجوشن الضبابي ا حين لم يسلم إلا بعد فتح مكة، وقد كان رسول الله ﷺ دعاه إلى الإسلام بعد بدر فقال له:

(هل لك إلى أن تكون من أوائل هذا الأمر؟

قال: لا

قال: فما يمنعك منه؟

قال: رأيت قومك كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، فأنظر، فإن ظهرت عليهم آمنت بك واتبعتك، وإن ظهروا عليك لم أتبعك.

فكان ذو الجوشن يتوجع على تركه الإسلام حين دعاه إليه رسول الله ﷺ) [٢].

وكم من أناس اليوم لا يعدو منطقهم منطق ذي الجوشن؟ يدعوهم واقع المعركة الإسلامية إلى أن يكونوا الأوائل والمقدمة، والنبلاء، والقادة، ورأس النفيضة، فيأبون إلا أن يكونوا مؤخرة.

وكم من إصبع سيعض ندما يوم يختار الله الطلائع السائرة لإتمام نوره؟

---

(١) معالم في الطريق/ ٧.

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ٤٧.

opeikandi.com

ولا تزال اليوم في العالم الإسلامي بلاد كثيرة فيها عناصر من الأفراد الدعاة جيدة، وجمعيات إسلامية متعددة، وتجمعات لدراسة الحديث النبوي الشريف وكلام السلف، وطرق صوفية وطلاب دراسات شرعية، وأحزاب إسلامية انتخابية لا تعتمد طريق التربية، ولكن ليس في أي من هذه الأحزاب والطرق والتجمعات والجمعيات والعناصر التصميم على سلوك طريق الدعوة التي تتجمع على أساس طاعة لأمير، وتلح في التربية، وتخطط لتغيير الواقع الذي يضغط عليها واستبدال حكم إسلامي به، فهذه الجماعات مدعوة، أينما وجدت، في شمال أفريقيا أو شرقها أو غربها، أو في جزيرة العرب، أو في بلاد الأفغان وإيران والهند، أو جنوب شرقي آسيا، أو في بلاد الصين والطاجيك والأزبك والتركمان والداغستان إلى أن يراجع أفرادها أنفسهم، فيصححوا عقائدهم إن كان فيها نوع من بدع، ويعلوا هممهم إن كان يعتريهم نوع خوف، ويتخلوا عن الأنانية وحب التزعم إن كان قد ولدهما فيهم طول العمل في تجمعات صغيرة، ثم يبايعوا حرا يتميز بهم في حركة إسلامية واضحة الهدف التغييري، متينة التوجيه التربوي، رصينة الصف التنظيمي.

فإذا بادر مقدام فقال: ها أنا، فإذا لأفراد هذه الجماعات أسوة وقدوة في الحوار الشريف بين إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- حين أمر الله إبراهيم ببناء الكعبة.

قال إبراهيم ÷ :

(يا إسماعيل: إن الله أمرني بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك ربك.

قال: وتعينني؟

قال: وأعينك) [(١)] .

فهذا هو جواب المؤمنين دومًا، بلا تلكؤ ولا تلعثم.

وإن الله قد أمر بإعادة الحكم الإسلامي.

ويجب أن تكون من الأعوان.

لا تتخلف، وامض، وبادر، وكن وريث إسماعيل.

لا تقعد في بيتك.

لا تسمع نداء مستقبلك الوظيفي والتجاري.

فهنا، في هذه الإجابة الإسماعيلية رأسمالك الحقيقي.

فإن استغربت أسلوب الطلائع، وأبيت إلا فتاوى القدماء، فاستمع إلى الإمام ابن تيمية يشرحه لك، ويقول في معرض شرحه لحديث الغربة:

(كثير من الناس إذا رأى المنكر، أو تغير كثير من أحوال الإسلام، جزع وكلَّ وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا) ثم يقول: (وقوله ﷺ: **ثم يعود غريبا كما بدأ**) أعظم ما تكون غربته إذا ارتد الداخلون فيه عنه، وقد قال تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة:٥٤].

فهؤلاء يقيمون إذ ارتد عنه أولئك.

وكذلك بدأ غريبا ولم يزل يقوى حتى انتشر، فهكذا يتغرب في كثير من الأمكنة والأزمنة ثم يظهر حتى يقيمه الله ﻷ ، كما كان عمر بن عبد العزيز لما

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥.

ولي قد تغرب كثير من الإسلام على كثير من الناس حتى كان منهم من لا يعرف تحريم الخمر، فأظهر الله به في الإسلام ما كان غريبًا)[١].

الرواد يصفون الطريق

فإن هداك الله، وكنت في الطلائع، فاسمع الرواد في العصر الحديث يشرحون لك الطريق.

فأول ما ينبه إليه الإمام البنا هو: (**وجوب الجد والعمل، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه، والتأسيس بعد التدريس**)[٢].

ثم شرح ذلك فقال:

(إن كل دعوة لابد لها من مراحل ثلاث:

مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة، وإيصالها إلى الجماهير من طبقات الشعب.

ثم مرحلة التكوين وتخير الأنصار وإعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين.

ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج.

وكثيرا ما تسير هذه المرحلة الثلاث جنبا إلى جنب، نظرا لوحدة الدعوة وقوة الارتباط بينها جميعا، فالداعي يدعو، وهو في الوقت عينه يعمل وينفذ كذلك، ولكن لا شك في أن الغاية الأخيرة، أو النتيجة الكاملة، لا تظهر إلا بعد عموم الدعاية وكثرة الأنصار ومتانة التكوين)[٣].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٨/ ٢٩٧.
(٢) المؤتمر الخامس/ المجموعة/ ٢٣٩.
(٣) المؤتمر الخامس/ ٢٥٤.

وأمَّا الأستاذ المودودي فيدعوك إلى التأمل في سيرة النبي ﷺ لترى كيف (**قام ذلك الرجل الوحيد فتحدى الدنيا كلها، ورفض كل تلك الأفكار الخاطئة والطرق المعوجة التي كانت رائجة في الدنيا، وعرض بإزائها عقيدة من عند الله مخصوصة وطريقة معينة، وفي مدة قليلة من السنين حول مجرى التيار، وغير لون الزمان بقوة تبليغه وجهاده**) [١].

(إن إقامة الإمام الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الإسلام، فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق، لا ينتهي عمله إلا بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام.

ثم إذا لم يكن من الممكن تحقق هذا المقصد الأسمى إلا بمساعي الجماعة، لم يكن بد من أن تكون في الأرض جماعة صالحة تؤمن بمبادئ الحق، وتحافظ عليها، ولا تكون لها غاية في الحياة إلا إقامة نظام الحق وإدارة شئونه بغاية من الاهتمام والعناية، ولعمر الحق إنه لو لم يكن على وجه الأرض إلا رجل واحد مؤمن، لما جاز له أن يرضى على نفسه بتسلط نظام الباطل، حينما يجد نفسه وحيدًا فاقدًا للوسائل اللازمة، أو أن يحاول التستر وراء الحيل الشرعية، كالاقتناع بأهون البليتين، بل الحق أنه لا يكون أمامه إلا طريق واحد، وهو: أن يدعو الناس كافة إلى منهاج الحياة الذي يرضى به الرب تعالى، فإن لم يجب لدعوته أحد، فإن قيامه على الصراط المستقيم، واستمراره في دعوة الناس حتى يلقى ربه خير له ألف مرة من أن يتنكب الصراط الحق ويهتف بنعرات تهش لها وتفرح بها الدنيا المتسكعة في بيداء الضلالة والغواية) [٢].

---

(١) نحن والحضارة الغربية/ ٢٥٠.

(٢) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية/ ١٨.

ولكن هذه الحقائق ذهل عنها الفرديون وظنوا أنه طريق خطب، وصيحات منابر، وقرارات ومؤتمرات، وحاول الداعية الإسلامي الكبير شكيب أرسلان / تعليمهم الطريق الصحيح فلم يفلح.

يقول / في نص ثمين جدا خلال رسالة أنشأها سنة ١٩٣١، ونشرت مجلة (المسلمون) صورتها، يخاطب أحد أبناء فلسطين:

(تأتيني كتب كثيرة من المغرب وجاوا ومصر وسورية والعراق ونفس فلسطين بلدكم، مقترحا أصحابها عقد مؤتمر إسلامي أو انتخاب خليفة أو ما أشبه ذلك. ويكون جوابي دائما: يجب أن نؤسس من تحت يجب أن نربي الفرد).

ثم يتابع فيقول:

(أما أن نعقد مؤتمرا مجموعا من ضعفاء ليس لهم إرادة مستقلة وهم لا يقدرون أن ينفذوا قرارا، فما فائدة ذلك، أتريد أن نجمع أصفارًا؟) (١)

وهذه كلمات تكشف عن قمة الوعي وعن آخر تجارب الدعاة، ولكن أصحاب شكيب خذلوه، وكانوا أقصر همما.

ولا زلنا ننظر هؤلاء الخطباء المساكين على منابر الجمعة والاحتفالات يتألمون، وينادون المسلمين بالعمل والجهاد، ويختمون خطبهم بمثل قولهم: الإسلام يناديكم. ولا يسألون أنفسهم: بأي متصد للزعامة نثق، وما ثم فيهم إلا قائد مقود، ومتبجح مملوك؟

إنهم جهلوا طريق العمل الصحيح، فلا تؤدي خطبهم إلا إلى زيادة آلامهم وآلام السامعين، ولو علموهم اليأس من قادة اليوم، وأرشدوهم

---

(١) المسلمون/ ٢/ ٢٦٣.

إلى وجوب التجمع والأمر بالمعروف الذي جاء به الإسلام، والنهي عن المنكر الذي تقترفه الأحزاب والزعامات المملوكة، لحصل لهم المطلوب الذي يتمنونه، ولكن ما زلنا نسمع نشيج الجمعيات وقرارات المؤتمرات منذ عشرات السنين، وما ثم إلا جمع الأصفار.

إنه التأسيس من تحت كما يقول شكيب، ليس غير، وإنها خيمة التنظيم لا قاعات المؤتمرات.

تنصب خيمتك في صحراء جاهلية القرن العشرين، وتضرم نارك ليراها التائهون والمنقطعون فيقصدونها وينزلون خيمتك وتنادي ابنتك لُبينى لتزيد لهب النار، وتعلمها:

يا لُبينى أوقدي طال المدى ... أوقدي عل على النار هدى
أوقدي يا لبن قد حار الدليل ... أوقدي النار لأبناء السبيل
ارفعي النار وأذكي جمرها ... عل هذا الركب يعشو شطرها
شردي هذا الظلام الجاثما ... أرشدي هذا الفراش الهائما
حبذا النار بليل توقد ... حبذا المؤنس هذا الموقد
حبذا عندك هذا النزل ... لو حوانا في سفار منزل
ما لذا المنزل قد سار الفريق ... إنما النيران أعلام الطريق
زودينا بهيام ووجيب ... زودي يا لبن من هذا اللهيب (١)

* * *

(١) لعزام، من قصيدة اللمعات، التي ألحقها بترجمته لديوان رسالة المشرق لإقبال.

10 تنسيق وشمول

سمتان ما زال الإسلام يعرف بهما.

سمت الاستعلاء على المبادئ الأخرى، جازمًا بضلالها، وسمت وليد هذا الترفع، يطبعه بالتبرؤ من الأغيار، ومفاصلتهم، وهجر كل صاحب هوى.

وفي هذين السمتين تعبير عن فطرة التغيير التي طبع الله الإسلام عليها، المتعدية بالتالي إلى طبيعة الحركات الإسلامية.

وأمام هذه الفطرة، غدت مناهج المهادنة والمصالحة والتعايش بين الإسلام والكفر فاشلة.

اختلاف المنطق ينفي اللقاء

ولذلك، فإن شعراء الدعوة ركزوا على بيان هذه الفطرة التغييرية الإسلامية.

فيؤكد الشاعر الداعية محمود آل جعفر ذلك، فيقول:

وكيف لا يكون ذلك واضحًا؟

هذه دعائمنا تشع كشمسنا	الله غايتنا، نقول ونجزم
دستورنا القرآن، لا نرضي سوى	القرآن تشريعا يسود ويحكم
لم نعرف الإسلام إلا دعوة	وضاءة تحيي الأنام وتلهم
لم نعرف الإسلام إلا قوة	تهوي على الرأس العنيد وتحطم[1]

---

(١) ديوان حنين إلى الفجر/ ٧٢.

obeikandi.com

أندع الأمر لكل ضال؟

حالة من الواجب أن نرفضها.

فرهط الحكومات قد جانبوا | هداهم وضلوا صراط السداد
وقد أركبتم سياساتهم | مراكب تجري بوحي العناد
فبعض تظاهر في غيه | وبعض تستر خلف الحياد
نسوا واجب الخلق واستكبروا | فعم البلاء وطم الفساد
فكيف النجاة وكيف الحياة | وكل له في هواه اجتهاد؟
وكل يريد استياق القطيع | إلى مبتغاه، وبئس المراد
فهلا ابتدرنا إلى نجدة | وهلا استجبنا لداعي الجهاد؟
فإما حياة الهدى والإباء | وإما الشهادة يوم الجلاد (١)

ولقد كان العيش المتصالح ممكنا لي أنا الداعية،

ولكنهم ركبوا مسلكا | يحيد عن الجدد المشرق
وقد ملك الأمر منهم رجال | يخالف منطقهم منطقي
نأوا عن هدى الله في نهجهم | وساروا، وسرت، فلم نلتق (٢)

فهذه مفاصلة حتمية، لمجرد هذا المنطق المختلف والطريق المتعاكس، فكيف وقد صار العدوان؟

الانسياب الموزون وليد المركز الثابت

وفي هذا ما يوجب على الدعاة الابتدار، والخروج إلى عمل جماعي يعيد من ضل إلى الجدد المشرق وصراط السداد.

---

(١) (٢) ألوان طيف للأميري/ ٩٤.

obeikandl.com

فقد يكون الدعاة دعاة فكرة مجردة، تراهم كأروع الدعاة فهما للإسلام وعقيدته وأنظمته وقوانينه، وأكثرهم قراءة للكتب، ولعلهم من أشد المسلمين حماسة، وأخشعهم في الصلاة، ولكنهم ينفرون من التقيد بخطة ونظام، ما وقر في نفوسهم اعتقدوه، وما تبين لهم من طرق سلكوها، فهم قادة نفسهم، لا يبالون إن وافقت أعمالهم الدعاة الآخرين، أم خالفوها منفردين.

أولئك أبعد الناس عن الوصول إلى ثمرة إيجابية، وأولئك هم المراوحون.

أما الذين يفتحون للأمة اليوم نافذة تطل بها على نوع أمل، فإنما هم المنسقون.

إذ ما زالت التجارب والتطبيقات تظهر الأهمية العظمى لدور التنظيم في إحلال الانسجام والتنسيق بين جهود العاملين، مع استثمار أدنى درجات إمكانية إفادة الإسلام لدى الأشخاص استثمارًا إيجابيا مباشرًا.

وإن الخطة البارعة بإمكانية أن تجعل التنظيم مركزًا تسير في فلكه جهود الأفراد في انسيابية هندسية جميلة ليس فيها اضطراب، كانسيابية محيط الدائرة الجميل الاستدارة بالنسبة لمركزها.

إنما المركز روح الدائرة نقطة فيها محيط، ضامره

ومن المركز للقوم نظام ومن المركز للقوم دوام (١).

فليس في الجهود المبذولة ما هو صغير إذا جاء في حينه المناسب، ومكانه المناسب، وللدعوة متطلبات واحتياجات متكاملة، بعضها يكمل بعضا، والجهود المبذولة للوفاء بها متكاملة: صغيرها يكمل ويقوى كبيرها.

---

(١) ديوان الأسرار والرموز/ ١٢٣.

وإن العمل الذي يديم سير الجماعة الداعية:

(**تراه كالدائرة: يصعد بك محيط ويحبط، لا من أنه نازل أو عال، ولكن من أنه ملتف، مندمج، موزون، مقدار**)[١].

فليس ثمة جهد في هذا العمل تظنه في قيمته وأهميته نازلا، فيسوغ إهماله، وإنما كل الأعمال على بعد واحد من المركز إذا كانت ضمن الخطة موزونة مقدرة.

تكامل في التطبيق

ثم يكون الشمول ثانيا.

وهو شمول بالسعة التي بلغها الإمام البنا / في الأصول العشرين، فإسلامنا:

(**دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء. وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى. وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة**)[٢].

إنها سعة في الفهم، توجب على تجمع العاملين سعة أخرى في الأسلوب والتطبيق.

فليست الدعوة الإسلامية حزبا سياسيا، وإن كانت ساعية إلى الحكم، في انتباه تحذر معه أن تلهيها الأحداث عن خططها التربوي، وواجبها العبادي.

---

(١) من تشبيهات الرافعي لبعض الأمور خلال وحي القلم ٣/ ٤٢٦.

(٢) رسالة التعاليم.

o o e i k a n d i . c o m

ولا هي مجمعا فقهيا محضا، أو كلية شريعة، أو دارًا للإفتاء، وإن كانت تحرص على الثقافة الشرعية، والسير على بينة من السنة الغراء، في بعد عن الجدل في الفروع، وعن الترف الفكري المثبط لهمتها في التجميع وقيادة العامة.

ولا هي دار نشر، أو وكالة إعلامية، وإن كانت الصحافة وملاحقة الأحداث وبيان حكم الإسلام فيها من تمام واجباتها.

ولا هي بعد ذلك منظمة فدائية، أو مؤسسة عسكرية، أو فرقة كشفية، وإن كان الجهاد أصلا من أصولها، والألعاب الرياضية أسلوبا من أساليبها، في غير ما تورط في عنف ومجازفة واستعجال.

كما أنها ليست جمعية خيرية، أو وزارة أوقاف، وإن كانت تأخذ بيد اليتيم والفقير، وتسعف المريض، وتساهم في بناء بيوت الله.

نعم، ليست الدعوة شيئا من ذلك، ولكنها كل ذلك، فإن تزاحمت الحاجات، وقصرت الطاقات كان تقديم الأهم وفق نظرة نسبية، تبعا لميزان التوفيق بين المصالح والمفاسد المتعارضة، بإهدار كل مصلحة صغيرة يؤدي الحرص عليها إلى تفويت مصلحة أكبر منها، واحتمال اليسير من المفاسد، لدرء ما هو أعظم.

قيادة المسلمين أولى من زيادة البر

ويبدو من تجاربنا، أن الأكثرين ممن نخاطبهم اليوم ينقصهم الوعي السياسي، والمنهج الفقهي، ولم تتوهج فيهم بعد روح الجهاد.

ولكن الجانب الخيري هو الذي ما زال يحتل شطرا واسعا في تفكيرهم، وإن نقصت الأموال التي بأيديهم –في الحقيقة– عن مجاراة هذه السعة في

obeikandi.com

التفكير، ولذلك فإنهم بحاجة إلى مزيد خطاب يفهمهم تكامل الدعوة وامتيازها عن أساليب الجمعيات الخيرية.

ولا شك أن مما يساعد على ترجيح هذا التفكير عندهم: تلك القلوب الرقيقة التي يملكونها، المفعمة بالإيمان الفطري، والتي مازال يؤجج تركيز الوعظ على معاني البر ومكارم الأخلاق حماستها للمساهمة في كفالة الأيتام، وبناء المدارس ورفع المساجد.

ووالله ما نطق واعظ بغير الحق، ولا كذبت أحاديث الفضائل، ولا غفلنا عن أثر ذلك في ترويج الدعوة بالتربية الميدانية التي تحطم الحواجز ويعامل الدعاة المربون خلالها عموم الناس مباشرة، إذ الناس في جوانب حياتهم منغمسون.

ولكن داعية الإسلام قد رصدته صفته لأهم من مجرد ذلك وأجل، وعليه أن يسد ثغرات ما نرى في الأمة من يسدها إلا هو، ليس أجرها بأقل من أجر أبواب الخير، إن لم يكن أضعافها.

إن أمام الداعية تنفيذ هذا الواجب التجميعي التربوي الثقافي الإعلامي السياسي الجهادي الخيري، في شموله الواسع وتكامله المترابط.

وهو التميز الثاني، من بعد التميز الأول عن عامة المسلمين بواسطة الجماعية في العمل.

وهو تميز قديم لا نبتدع القول به، أمر به إمام دعاة زمانه أحمد بن حنبل /.

وذلك لما سأله تلميذه زهير بن أبي زهير، فقال:

(إن فلانا ربما سعى في الأمور، مثل المصانع، والمساجد، والآبار؟

قال: فقال لي أحمد:

لا، نفسه أولى به.

وكره أن يبذل الرجل نفسه ووجهه) [(١)].

فهاهنا مسألتان كشف عنهما الإمام أحمد:

الأولى: كشفتها ألفاظ هذه الحروف، وهي ألا يبذل الداعية وجهه، بالتعرض إلى جمع المال من الأغنياء، ولو لمصلحة عامة، فقد يحبس هذا النشاط لسان الداعية عن قول الحق.. أمرًا أو نهيًا.

والثانية: يكشفها مجمل قصده من حفظ الوجه، وهو التفرغ، بهيبة كافية، لقيادة جمهور المسلمين، ومصاولة الابتداع وأعداء الإسلام، والأمر بالمعروف، ونشر العلم، مما تفصح سيرته هو عن مثل ذلك.

وهذا الإفتاء قريب مما ذكره فقهاء الأحكام السلطانية، حين أوجبوا على الخليفة ألا يتشاغل عن سياسة الدولة وتدبير الجيوش بالعبادة وأعمال البر الشخصية، كما قال الماوردي، حين جعل من واجبات الخليفة:

(أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور، وتصفح الأحوال، لينهض بسياسة الأمة، وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة، فقد يخون الأمين، ويغش الناصح، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ﴾ [ص:٢٦].

فلم يقتصر الله سبحانه على التفويض دون المباشرة، ولا عذره في الاتباع حتى وصفه بالضلال.

---

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ١٥٩.

وهذا، وإن كان مستحقا عليه بحكم الدين ومنصب الخلافة، فهو من حقوق السياسة لكل مسترع.

قال النبي ﷺ : **"كلكم راع وكلكم مسول عن رعيته"** [١] .

وإنها لرعاية حقا، ومسئولية صدقا.

معهما يلمس المرء تماما البعد الشاسع بين جهدين:

جهد السعي المجرد في مصالح الناس، مهما أتعب البدن.

وجهد مواكبة الدعوة في شمولها، مواكبة تستهلك البدن، وترهق الفكر، وتمتص رحيق الروح.

ولذلك كانت حالة الشمول سموا، لا يقوى عليها إلا أشداء المؤمنين.

* * *

(١) الأحكام السلطانية للماوردي، الطبعة الثانية / ١٦ .

obeikandl.com